الفصل الخامس
الميتافيزيقا

1) كونداك ميتافيزيقيا
2) ميتافيزيقا كونداك ومكانتها
من المذاهب الحديثة
أ- النفس
ب- العالم
ج- الله

1) كوندياك ميتافريقا:

هاجم كوندياك الأنطولوجيا ontologie هجوماً مريراً واعتبرها عبثاً لجمعها بين الأفكار المجردة كالوجود والجواهر والمبادئ والعلل والعلاقات واهتمامها بما وراء الظواهر، لكنه أشار فى ذات الوقت إلى الميتافيزيقا الخاصة، وعلم النفس والكوزمولوجيا والألوهية[1].

وقد اتفق كوندياك والإتجاه الدجماطيقى الذى أخفى الكائنات، والجواهر والعلل وراء الظواهر، فانتهج منهج أتباعه فتصور أن طبيعة الموجودات تظل دائماً مجهولة لنا فلا نعرف جواهر الأشياء أو النفوس أو الله، إن العقل وحده هو الذى يعرف الأشياء، كما هى كائنة ويستطيع أن يؤكد وجود الموجودات المادية ووجود النفس والله[2]. ومن ثم فإنه يخالف الماديين والمثاليين والألوهيين، كما يختلف عن الوضعيين الذين يدرسون العلاقات بين الظواهر[3].

([1]) Traite des sensations P 108.

([2]) Ibid.

([3]) Ibid.

ولكن لما كان كوندياك ليس مادياً أو مثالياً أو وضعياً أو من أتباع الألوهية فما هو موقفه من الميتافيزيقا فى ضوء تصوره عنها؟ إن كوندياك فى ضوء موقفه يندرج ضمن قائمة الميتافيزيقيين فهو لم يقتصر على تأكيد وجود النفس، والله، والعالم، ولكنه أشار إلى وجود النفس والأجسام، كما سعى إلى معرفة علاقة الله بهم[1]. وقد جاءت آراؤه متفقة فى هذا الصدد مع آرء الميتافيزيقيين عن طبيعة النفس والأجسام والله.

وفى سبيل تعضيد آرائه الميتافيزيقية ينتهج كوندياك المنهج النسبى، وهو المنهج الذى استخدمه الوضعيون فى معرفة الظواهر فحسب.

2) ميتافيزيقا كوندياك ومكانتها من المذاهب الحديثة:

فى ضوء عرض فلسفة كوندياك، ومن خلال تفسير قوى التمثال العقلية والإرادية، وحريته والتمييز بين الإنسان، والحيوان، والصلة بين النفس والجسد، نتساءل عن المكانة التى تحتلها هذه الفلسفة الطريفة من تاريخ المذاهب الفلسفية؟[2]. خاصة فى ضوء تفسير المذاهب للصلة بين النفس والجسد، فهل كان كوندياك فينومنولوجياً يسلم بخدمة المادة للفكر؟ هل كان مادياً يميز المادة بصفة مطلقة عن الجسد؟ هل كان روحياً، أم وضعياً؟؟

([1]) Ibid P 109.

([2]) Ibid.

- وكما اشتمل المنطق عنده على أربعة مباحث هى اليقين، والتحليل، وترابط الأفكار، واللغة، فقد اشتملت الميتافيزيقا عنده على ثلاثة أقسام هى النفس، والعالم المادى، والله.

(أ) النفس:

يعرض كوندياك فى بحثه فى طبيعة النفس آراء أربعة مذاهب هى المذهب المادى، و الفينومنولوجى، والوضعى، والروحى، فالأول هو الذى يجعل الظواهر النفسية تتجه للجوهر الجسمانى، أما المذهب الثانى فينكر وجود جوهر مادى أو روحى يكون علة لهذه الظواهر النفسية، فى حين اقتصر الوضعيون على دراسة هذه الظواهر فحسب دون الإشارة إلى وجود جواهر روحية أو مادية، أما الروحانيون فقد أشاروا إلى وجود جوهر مغاير للجسد قائم بذاته بسيط غير متجزئى. ترجع إليه جميع الظواهر النفسية.

فى ضوء ما سبق هل يمكن اعتبار كوندياك فينومنولوجياً عندما قال: أن الفكر الأساسى ليس هو الناتج من تحولات النفس، بل القادر على جميع أنواع التحولات[1].

هل يمكن أن يكون وضعياً عندما يقول: "أننا لا نستطيع فهم طبيعة وجودنا لعجزنا عن النفاذ إلى طبيعة الجوهر لا من خلال الإحساس، ولا من خلال التجربة"[2].

إن منطوق مذهبه يتجه به لأن يكون مادياً، بيد أنه يشير إلى الروحية عندما يدحض الانتقادات التى تضعه فى مصاف الماديين[1].

---

(1) Ibid P 111.

(2) Ibid.

ولكن كيف يصبح كوندياك روحياً؟! والروحية تمثل لأتباعها مبدأ للفكر، فالنفس معروفة من خلال الشعور ككائن مميز عن الجسد، كما تمثل قوة بسيطة، فعالة، وحرة، وخالدة.

ولكن ألا يصبح كوندياك أقل جرأة عندما يقترب من هذا المذهب الروحى، إن النفس عنده هى الجوهر الذى يحس، وهى مغايرة للجسد، كما يعدها الإيمان بحياة أخرى، ويثبت العقل أبديتها لقدرتها على الفعل الحسن والسيء، وأنها لا تتلقى فى هذه الحياة ما يتناسب مع أعمالها من ثواب أو عقاب[2]. كما أنها تحتاج الجسد لتحصل على الثواب والعقاب عن فضائلها ورذائلها، كما ندرك أن لها إدراكات حسية تقوم باختيار شيء ما عندما ينطبع على الحواس، كما نحس أنها تخلق فينا مبدأ أفعالنا، وتوجد فينا فكرة القوة.

على هذا النحو تصور كوندياك النفس، نراه يميز منذ البداية بينها، وبين الجسد، وهو يختلف عن لوك الذى يلقى بمسئولية المعرفة على ما يمنحه الله للتفكير من موضوعات معينة، كما يؤكد بطلان الاستدلال القائم على الجهل بماهية وطبيعة المادة[3].

إن الجسد عنده علة عرضية لإحساسات النفس، فهى تتحد به، وتملك الشعور بذاتها، ومع ذلك فحين تستقل عنه يكون لا علم لها، مع أن النفس المفارقه له وجدت وشعرت بذاتها قبل أن تكون فى الجسد[4].

([1]) Ibid.

([2]) Ibid P 113.

([3]) Ibid P 113.

([4]) Ibid P 115.

وهـذا يعنـى أن الشـعور اوالإحسـاس مـرتبط بالجسـد ، فـالنفس التى تشعر الآن تحصل على شعورها لوجودها مع الجسد ، ومن ثم فنحن لا نـدرك بـدون نفوسـنا لأننـا نـدركها فـى أجسـادنا ، ونشـعر بإدراكاتها الحسية.

كل ما سبق هو كل ما يمكن معرفته عن النفس، ولكننا مع ذلك نعجـز عـن معرفـة طبيعتهـا ، أو مـا تفعلـه عنـدما تملـك الإدراكـات الحسية ، أو معرفة قدرتنا على الإدراك كذلك لأنها تظل قوة مجهولة ، ففكرتـى القـوى والحركـة معـروفتين لـدينا لكننـا عـاجزون تمامـاً مـن تحديدهما أو معرفة علة حركة الجسم، وإحساس النفس. وهكذا تظل ماهيـة وطبيعـة الـنفس مجهولـة لنـا شـأنها شـأن بقيـة الموجـودات الأخـرى فـنحن عـاجزون عـن إدراكهـا لا بطريـق الحـواس، ولا التجربـة؛ لأنهـا لا تعـرف إلا بواسـطة قـوة روحيـة عاليـة ، وعقـل متعـالى يقـدر علـى معرفـة الأشياء[1].

يقول كوندياك: "إننا نبرهن بقوة على روحانية النفس، بيد أننا نعجز عن تحديد ماهيتها وطبيعتها ، فأبحاثنا تشير لنـا بحالتنـا الحاضـرة وتبين لنا عجز الإنسان عن معرفة مـا كـان يعرفـه قبـل حصـول الخطيئـة. وهبوطه إلى عالمنا الأرضى، وقد استتبع ذلك ضعف ونقص معرفتنا[2].

إن الإنسـان يحـس بذاتـه حينمـا يحـس بالإحسـاس الحاضـر ، ويتـذكر الإحساسـات الماضـية التـى تصـبح بمثابـة إحساسـات متحولـة ، وتصـبح الأنـا بالنسـبة لـه مثـل الأنـا بالنسـبة للتمثـال: هـى مجموعـة مـن

---

(1) Ibid P 115.

(2) Ibid P 116.

الإحساسات التى نختبرها ومنها من تعمل الذاكرة على استدعائه وتقدمه، كما يبدو لها، لا كما يبدو فى الواقع، وتظهر مجموعة هذه الإحساسات من مناسبة تطبع هذه الأشياء على الأعضاء من خلال العالم الخارجى[1]. والنفس عند كوندياك خالدة؛ لأنها خلقية، وأنها لا تحصل فى الحياة الدنيا على ما يناسب أفعالها من ثواب وعقاب[2].

(ب) العالم:

بعد أن يعرض كوندياك لتصور النفس الإنسانية يشير إلى فكرته عن العالم المادى فيعرض لموضوع النفس والجسد، يقول عن الجسد: إنه جوهر ممتد، والامتداد هو الخاصية التى تميزه وحده، ولا تنطبق على الأشياء الأخرى[3].

ولقد انفصل كوندياك عن الفينومنولوجين عندما أثبت وجود الامتداد كموضوع للخصائص الجسمية، والإمتداد هو الاسم الذى يعطى الوجود للأشياء التى نعرفها، ولا نملك عنها فكرة مطلقة، وبهذا التأكيد ينفصل كوندياك عن الفينومنولوجين[4].

أما النفس فهى لا تحكم ولا تنفعل، لا ترغب، ولا تريد إلا لأنها تملك الإحساسات التى تصبح خاصية للنفس، وجميع القوى الأخرى ما هى إلا تحولات. وهكذا تصبح النفس هى الجوهر الذى يحس كما

([1]) Ibid P 117.
([2]) Ibid.
([3]) Ibid P 117.
([4]) Ibid.

يصبح الإحساس والإمتداد خاصيتين متناقضتين[1]. لكى نؤمن بأن جوهرى النفس والجسد مختلفان بصفة مطلقة، ونحن نلمح فى هذا التمييز أثراً للفكر الديكارتى الذى اتجه إلى الفصل بين جوهرى النفس والجسد.

ألسنا نرى بعد ذلك أن كونديلك يقترب من الوضعيين حين لا يجد العلم الثابت إلا فى الظواهر وعلاقاتها، ومع ذلك فهو يذهب مع الميتافيزيقيين إلى وجود الجواهر ويؤمن بها دون أن ينفذ إلى ماهياتها، كما يستطيع الحكم باختلافها المطلق من خلال ما يعرفه عنها من خصائص معلومة. ومن جهة أخرى يظهر أثر فكر لوك واضحاً خاصة فيما يتعلق بإيمان كوندياك بالجواهر دون النفاذ إلى ماهيتها، وكذلك فى حكمه عليها فى ضوء ما يعرفه عنها عن خصائص[2]. وقد انتقل كوندياك متدرجاً من معرفة النفس إلى معرفة العالم، ومنه إلى معرفة الله، وكان بذلك يحذو حذو ديكارت فى خطواته لإثباته وجود نفسه والعالم والله. فما هو تصوره إذن عن فكرة وجود الله؟

(ج) الله:

تعد الميتافيزيقا عند كوندياك هى السبيل الوحيدة إلى معرفة الله وطبيعته عن طريق العقل.

وهو يرفض وجود الأفكار الفطرية لتفسير إيمان الناس بالله؛ لأنه لو سأل شاب أبكم فى الثالثة والعشرين من عمره عن فكرة

---

(1) Ibid.

(2) Ibid P 121.

الألوهية فسوف لا نجد لديه فكرة عن الله، ومن ثم فنحن لا نستطيع معرفة طبيعة الله[1].

كيف إذن نكتسب المعرفة بالله؟

إن هذه المعرفة لن تأتينا إلا إذا أقصينا البراهين الديكارتية القائمة على فكرة الكمال، واللامتناهى، وأخذنا بدليل العلة الفاعلية (السبب الكافى)، والعلة الغائية، وهى أدلة لم يعتقد ديكارت فى وجوبها، وإن كان كوندياك مع ذلك قد اعتقد مثلما اعتقد ديكارت فى وجود الله كحقيقة مؤكدة واعتقد فى أهمية العقل.

وفكرة الألولوهية معقدة تنطوى على عدد معين من الأفكار الجزئية، ولا نستطيع تكوين فكرة عنها، أو نبرهن عليها إلا بطريق الأبحاث المتطورة وتأملات النفس، فنكتسب فكرة مركبة جوهرية نستطيع بفضلها البرهنة على وجود الله بدون اعتراض الملحدين ودعواهم بأننا نبرهن بمقتضى أفكار خيالية.

ويرى كوندياك أن المخلوقات ترتبط بعلة أولى تسببت فى وجودها وحفظها فى كل لحظة، فماذا عن ارتباط العلة بالمعلول فى مسألة الألوهية؟ يجيب كوندياك على ذلك: بأن الإنسان لا يشك فى ارتباطه بالعلل التى تؤثر فى الحال على وجوده [2].

ويقول كذلك أن لكل موجود علة تحدثه، ومحال أن تتسلسل العلل إلى ما لا نهاية فلا بد أن نقف عند سبب أول، أو علة أولى للموجودات وهذه العلة الأولى هى المبدأ الأول لجميع الموجودات، وعلى

---

(1) Ibid P 121.

(2) Ibid P 123.

هذا النحو فنحن نصل إلى وجود الله، أو العلة الأولى عن طريق وساطة العلل الثانية[1].

ويسأل كوندياك عن بعض صفات الله فيقول هل هو متخيل، عاقل، حر، فيجيب بأنه لا يعرف التخيل؛ لأنه لكليته يتضمن فى ماهيته، وهو لا يستطيع التخيل لاختلاف مصدر أفكاره عن تلك التى لدينا، وهو فى غير حاجة إلى الإشارات، وليس لديه ذاكرة؛ لأنه حاضر دائما، ويرى جميع الموجودات ككل، ويرى الطبيعة، ويعرف خصائص الظواهر، وما سوف يستتبعها من نتائج تتعلق بالإنسان الكائن المحدود. أما عن صفة العقل فإن الله عاقل، ودليل ذلك هو نظام وترتيب الموجودات من الضرورية إلى الثانوية فى نظام دائم بحيث لا يختل نظامه وإلا حلت الفوضى فى عمله[2].

وفضلاً عن حضور الله الكلى ومعقوليته فهو حر كذلك، ولما كانت الحرية تغلق الطريق أمام الإرادة، وإمكان الفعل والسلوك والتريث، وكنا نعترف لله بالقدرة المطلقة والإستقلال والذكاء فإنما نعترف له بالحرية، فهو حر فى خلق مخلوقات لها حرية محدودة لتغير

---

(1) Ibid.

(2) يتفق مضمون هذا النص الكوندياكى مع نص لمالبرانش يتحدث فيه عن نظام العالم، وقدرة الله على التنظيم بقوله: لقد خلق الله نظاماً عجيباً قائماً على الكمال، والجمال، واللقة، لكن خللاً بسيطاً يقع فى هذا النظام يمكن أن يغير، فمجرد نمو نبت صغير على الأرض فى جهة اليمين بدلاً من اليسار، أو نموه بدرجة أقل أو أكثر يغير من وضع كل شيء فى الكون".

Malebranche. Nicolas: Entretiens sur Metaphysiques et sur la Religion. Entre, N 6 par paul Fontana librairie Arnauld colin paris 1922 P125.

ونهائية هذه المخلوقات، ولله كذلك القدرة على تغيير مسار كل جوهر، وعلى خلق وإفناء المخلوفات، وهو أبدى أزلى[1].وتتولد طبيعة الله من العقل والحرية والألوهية، كما يتولد عدله ورحمته[2].

على هذا النحو تكون العلة الأولى مستقلة، واحدة، أبدية، قادرة، خالدة، عاقلة حرة تكمن فيها العناية الإلهية، وهى تميز بين الإنسان، والحيوان؛ لأن الأول هو الوحيد القادر على تمييز الحق والإحساس بالجمال، وخلق الفنون والعلوم، ومعرفة الله وعبادته وطاعته من خلال قانون الطبيعة الذى فرضه علينا حين خلقنا[3].

فى ضوء ما سبق يتضح لنا إيمان كوندياك بالله الذى يبرهن العقل والإيمان على وجوده، خالق الطبيعة (العالم)، والنفس، الموصوف بصفات العقل والقدرة، والعدل الذى نعجز عن النفاذ إلى ماهيته. أما الجوهر المادى فنحن لا نعرف عنه شيئاً غير الصفات التى تظهر لنا. والنفس موجودة، وهى روح خالدة، ولكن ليس فى مقدورنا الوصول إلى ماهيتها.

([1]) Ibid P 128.

([2]) Ibid.

([3]) Ibid p129.